الفصل الثاني
مظاهر الضعف المعنوي

١ ـ الفوضى السياسية.

٢ ـ التكالب على المصالح الدنيوية والتطاحن من أجلها.

٣ ـ النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة.

٤ ـ موالاة كثير من ملوك الطوائف للنصارى وإذعانهم لتبعيتهم.

٥ ـ حياة الترف والخلاعة والمجون.

مظاهر الضعف المعنوي

أولاً: الفوضى السياسية:

لعل ما خلفه لنا المؤرخون من تسميات عدة لعصر ملوك الطوائف، دليل واضح على الضعف العام الذي مُني به مسلمو الأندلس في ذلك العصر؛ إذ إن لكل تسمية دلالة معينة، كما أن لكل اسم أو مصطلح أُطلق على ذلك العصر معنىً خاصاً يمكن أن يشار به إلى ذلك العصر، فقد أُطلق على زعماء ذلك العصر ملوك الطوائف(١)، وأمراء الفرقة الهمل(٢)، كما سمَّاهم ابن الخطيب بمقتسمي الملك من بعد الجماعة(٣)، وهذه الأسماء ما هي إلا قوالب للمعاني التي تشير إليها وترمز لها.

وبسبب هذا الضعف وذلك التمزق لم يعد للسلطة والسلطان قوة، كما لم يعد للوازع السلطاني قدر يذكر عند عامة الناس؛ إذ أصبحت مسمَّيات الإمارة أو الوزارة ونحوها مثار الضحك ومدعاة للسخرية؛ لأنهم أصبحوا دمى أو شبهها(٤)، وقد رصد هذا الشعور عند الناس الشاعر أبو الربيع سلمان القضاعي ثم سجلها بقوله:

هَبْكَ كما تدّعي وزيراً ... وزيرُ مَنْ أنتَ يا وزير؟!
والله ما للأمير معنى ... فكيف من وزرَ الأمير؟!(٥)

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٢٢، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٩.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٣) أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٨٣ - ٢٢٦.
(٤) صالح محمد السنيدي، دولة بني جهور في قرطبة، (رسالة ماجستير لم تنشر)، ص ٤٩.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٥١٤، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٤٢٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٤٧.

هـذا عن ملـوك الطوائف ، أما ذلك العصـر فقـد سُمِّي بعصــر الفتنة[١]، أو الفِرَق [٢]، أو الفتنة المبيرة[٣].

ومما لا شك فيـه أن هذه المصطلحات والأسماء العديدة تدل علىٰ وضع مضطرب كانت لـه آثارٌ سيئة علىٰ كثير من شؤون حياة الناس في ذلك البلد في أثناء ذلك العصر. ومما يمكن ذكره هنا أن هذا الضعف أثَّر علىٰ جوانب مختلفة من حياة الناس، فقد أصبح الضعف سمة عامة انعكست آثارها علىٰ واقع المسلمين هناك، وفي هذا يقول ابن حيان شيخ مؤرخي الأندلس: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، وخبَّث ضمائرهم، فاحتوىٰ عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، . . . يعلِّلون نفوسهم بالباطل، وذلك من أدل الدلائل علىٰ فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم ﷺ، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم حتىٰ ظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراص ديارهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفاً منهم، ويبيد أمة»[٤].

هكذا كانت حالة أولئك القوم فقد تمزقت وحدتهم السياسية، وضعفت حياتهم الاقتصادية، هذا فضلاً عما أصاب عامة الناس من ضعف وخور، وفي الصفحات التالية نفصِّل القول في هذه الجوانب.

إن من العوامل القوية للفوضىٰ السياسية التي حلت بمسلمي الأندلس في

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٢٥، عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ٥٦، ٥٨، ٦٩.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٥.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

عصر الطوائف فقدان الشرعية لقيام تلك الدويلات المتغلبة؛ ذلك لأن الحاكم في الدولة المسلمة إنما يكتسب شرعية وجوده ثم بقائه من الأمة نفسها فهو كالوكيل عنها في إدارة شؤونها؛ «لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين» كما يقول الماوردي[١]، وتثبيت هذه الشرعية للدولة بمبايعة الأمة للحاكم[٢]، لكن دول ملوك الطوائف كانت بعيدة عن هذا المنهج، فباستثناء أبي الحزم ابن جهور، فإن حكامها متغلبون، يقول ابن الخطيب عنهم بأنهم: «ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في شروط الإمامة مكتسب»[٣].

فملوك الطوائف يفتقدون الشرعية؛ لأنهم أمراء فرضوا أنفسهم على الناس بالغلبة، وبدون مبايعة الناس لهم أو قبولهم منهم، هذا فضلاً عن ظلمهم وجورهم وموالاتهم لأعدائهم، واستعانتهم بهم[٤]، وهذا بلا شك كان من العوامل القوية التي خلقت الفوضى السياسية عندهم، ونثرت عقدها، ومزقت وحدتها، فبعد أن كان الناس يخضعون لمظلة دولة إسلامية واحدة، ويقودهم كيان سياسي واحد تمتد حدوده من جبال البرنس شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن بحر الروم شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، تمزق هذا الكيان إلى أشلاء متناثرة[٥]؛ حيث اقتسم ملوك الطوائف أراضي الدول الأموية مما أضعفهم جميعاً، وفي هذا يقول الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس — سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[٦]

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٢٠.
(٢) ضياء الدين الريس، التنظيمات السياسية، ص ١١٤.
(٣) أعما ل الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤.
(٤) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦٤.
(٥) محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية، ص ٢.
(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤، المراكشي، المعجب، ص ١٠٥.

أما ابن حزم العالم الأندلسي الذي عايش ذلك الوضع فقد قال: «فضيحة لم يقع في العالم إلىٰ يومنا مثلها: أربعة رجال في ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمَّىٰ بإمرة أمير المؤمنين، ويُخطَب لهم فيها في زمن واحد»(١).

كما قال ابن الكردبوس: «إن هذا الضعف قد أذل الرئيس والمرؤوس كما أفسد أحوال الجميع بالكلية»(٢)، حيث «جرت حروب خاف الناس وبال عاقبتها علىٰ ثغور مثغورة خلال كلمة مختلفة وقرىٰ متكئة»(٣).

ولم يكن هذا الضعف وتلك الفوضىٰ السياسية خافية علىٰ العدو النصراني المتربص؛ ومما يدل علىٰ ذلك مقولة ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ لرسول المعتمد ابن عباد حين قدم إليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا علىٰ المغاني والعيدان، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدىٰ؟!»(٤).

ومما لا شك فيه أن هذا الواقع السياسي الممزق، وتلك الفوضىٰ السياسية قد خلفت آثاراً نفسية واجتماعية سيئة، بسبب سوء التعامل وحساسية الموقف بين أولئك القوم؛ حيث كان بينهم من التحاسد والتنافس والغيرة ما لا يكون بين الضرائر المترفات، فلم يتعاونوا علىٰ بر أو تقوىٰ، كما لم يسعوا لمصلحة إسلامية، بل انصبت كل جهودهم علىٰ توفير ما يخدم مصالحهم الخاصة(٥)،

---

(١) نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) تاريخ الأندلس، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٤.
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤.

فانقطعت السبل وظهرت الوحشة في البلد، كما كثر القتل والهرج والسلب، وأمسىٰ الناس في مثل عصر الجاهلية[١]، وهذا بلا شك هو الذي دفع الفقهاء وأهل الشورىٰ من المغرب والأندلس إلىٰ الفتوىٰ بخلعهم، وانتزاع الأمر من أيديهم[٢].

وقد انعكست آثار هذه الفوضىٰ السياسية علىٰ حياة الناس؛ حيث ضعفت الحياة الاقتصادية عندهم فعانىٰ مسلمو الأندلس من جشع أولئك الزعماء «الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة، يستغلونها بأقسىٰ الوسائل وأشنعها، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستضعفون ثرواتهم، وثمار كدّهم، إرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة، . . . وقد ترتب علىٰ ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية واختلط الحق بالباطل والحلال بالحرام، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة، بل يذهبون إلىٰ اقتضاء الغاية وتحقيق الكسب»[٣].

هكذا كان واقع أولئك القوم، وبالإضافة إلىٰ ما سبق، فقد كانوا يبالغون في جمع الإتاوات والضرائب من الرعية من أجل تقديمها للنصارىٰ مقابل إبقائهم علىٰ كراسي الحكم، وكان في مقدمة من نهج هذا النهج المقتدر بالله أحمد بن هود حاكم الثغر الأعلىٰ (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ)؛ حيث أثقل كواهل رعيته بالإتاوة من أجل تقديمها لحكام النصارىٰ مقابل بقائه علىٰ كرسي الحكم[٤].

ويذكر ابن عذارىٰ أن هذا العمل قد أدّىٰ إلىٰ ضعف مسلمي الأندلس، كما نتج عنه ازدراء العدو النصراني لملوك الطوائف؛ حيث «ملّ من أخذ الجزية، ولم

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١١.
(٢) عبد الرحمن العجلان، الأندلس تحت حكم المرابطين، ص ١٠٨ (رسالة ماجستير لم تنشر).
(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٢١.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩.

يقنع إلا بأخذ البلاد، وانتزاعها من أيدي المسلمين»[١].

هكذا كان ملوك الطوائف «طغاة قساة على رعيتهم يسومونهم الخسف ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم، وتحقيق ترفهم وبذخهم، ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من الدين ولا من الأخلاق»[٢]، وهذا بلا شك قد أدى إلى سخط عام صوره بعض معاصريه، ومنهم ابن حزم حينما قال: «إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ـ أولها عن آخرها ـ محارب لله ـ تعالى ـ ورسوله، وساع في الأرض بفساد، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربين للمكوس والجزية والضريبة على أهل الإسلام، معتذرين لضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم»[٣].

أما ابن عبد البر فقد ذكر أن ملوك الطوائف أصبحوا خولاً للنصارى يؤدون إليهم من الأموال أضعاف ما ينفقونه على رعاياهم من المسلمين[٤].

هكذا استعرت نار الفوضى السياسية بالأندلس، وقد كان وقودها أفراد المجتمع الإسلامي خاصتهم وعامتهم؛ حيث كان أصحاب المصالح الذاتية وزعماء النصرانية يحاولون دائماً إشعال فتيلها وتأجيج نارها، وقد تبين لنا من خلال العرض السابق أن تلك الفتنة قد أضرت بالمسلمين هناك؛ حيث أشغلتهم عن أمور كثيرة ومهمة، وفي مقدمتها عمليات الجهاد ضد النصارى؛ حيث

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٩.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤١٩.
(٣) مجموعة رسائل ابن حزم، ص ١٣٩.
(٤) القصد والأمم، في التعريف بأصول العرب والعجم، وأول من تكلم بالعربية من الأمم، ص ٣٦.

تحولت سهام المسلمين وحرابهم نحو نحور إخوانهم المسلمين، بدل العدو النصراني المتربص، كما أنها أذهبت ريحهم، وأحبطت جهودهم، ومزقت وحدتهم، وكسرت شوكتهم.

وقد استغل النصارى تلك الحالة من التمزق التي يعيشها المسلمون؛ فقويت حركة الاسترداد ضد المسلمين، كما تدخلوا في شؤون تلك الدول بشكل سافر، وكانت سياستهم تهدف إلى إذكاء نيران الفتن بين المسلمين، وإعانة الضعيف على القوي حتى يضعفوا جميعاً؛ فيسهل عليهم بذلك افتراس هذا القطيع الذي تفرق شمله وضل رعاته(١).

ثانياً: التكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها:

حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس كان هاجسهم الدائم وهدفهم الأسمى نشر الإسلام وتبليغه للناس، ولم يكونوا يهدفون إلى أية مطامع دنيوية أو أهداف سياسية أو مصالح خاصة، فقد تربى أولئك القوم في مدرسة القائد موسى بن نصير، ومن قبله عقبة بن نافع الذي بعدما أتم فتح بلاد المغرب انفجر باكياً متحسراً على انقطاع عمليات الجهاد؛ حيث قال: «لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك مقاتلاً من كفر بك»(٢).

كما أن القائد طارق بن زياد حينما عاد من الأندلس إلى المشرق سنة ٩٥ هـ، بعد أن أتم فتح معظم تلك البلاد، ونشر فيها الإسلام كان «متلهفاً على الجهاد الذي فاته، آسفاً على ما لحقه من الإزعاج»(٣)؛ على الرغم من كونه يحمل معه

---

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ١٥٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٠٦.
(٣) نجاح العطار، الأندلس من نفح الطيب، ص ١٢٧، والإزعاج: اضطراره إلى الرحيل عن الأندلس. =

من الأموال، والغنائم، والسبي، والجواهر، ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره[١].

وقد بقي هذا الهاجس عند الولاة والقادة بعد طارق بن زياد؛ حيث يذكر المؤرخون أن أربعة من الولاة استشهدوا في ميادين المعارك مع النصارىٰ، مجاهدين لنشر هذا الدين، وليس من أجل أي مطمع سياسي أو عسكري[٢]، بل إن الأندلس كلها كانت لا تساوي شيئاً عند قادة المسلمين حينما يشعرون بأن الوجود الإسلامي فيها تتهدده الأخطار، ومما لا شك فيه أن هذا الشعور هو الذي جعل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) لما تولىٰ الأمر، يفكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها رحمة منه بمن فيها منهم، وخوفاً عليهم من سطوة العدو النصراني المتربص بهم، وهو بهذا التفكير لم يقم أي وزن لما فيها من الخيرات والمطامع الدنيوية، ولم يغير رأيه هذا إلا حينما كتب إليه السمح بن

= بل يذكر ابن خلدون أن جهود موسىٰ بن نصير، وطارق بن زياد في ميدان الجهاد، كانت لا تعرف الملل؛ حيث «أجمع أن يأتي للمشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلىٰ الشام دروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، ومستلحماً لهم إلىٰ أن يلحق بدار الخلافة من دمشق، ونما الخبر إلىٰ الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأىٰ أن ما همّ به موسىٰ تغرير بالمسلمين». (العبر، ج ٤، ص ٢٥٥).

(١) المصدرين السابقين.

(٢) هؤلاء الأربعة هم:

١ ـ **السمح بن مالك الخولاني (ت ١٠٢ هـ)**، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٣٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص ١٩٥، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤١٨).

٢ ـ **عنبسة بن سحيم الكلبي (ت ١٠٧ هـ)**، وقد استشهد سنة ١٠٧هـ، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٤٤).

٣ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي**، استشهد في معركة: (بلاط الشهداء)، سنة ١١٤هـ، (المقري: نفح الطيب، ج٣، ص ١٦، الضبي، بغية الملتمس، ص ٣٦٥).

٤ ـ **عقبة بن الحجاج السلولي**، استشهد خلف جبال البرتات سنة ١٢٣ هـ، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٣٢).

مالك «يعرفه بقوة الإسلام، وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم»[١]، كما قيل له: «إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها، فأضرب عن ذلك»[٢].

وقد ظل كثير من الزعماء الأمويين بالأندلس محافظين على هذا الاتجاه، مؤكدين أهميته، وهذا بلا شك مما أعطى دولتهم قوة أمام القوى الصليبية المتربصة بالمسلمين هناك، ولكن حينما بدأ الضعف ينتاب الخلفاء المتأخرين، كما بدأت النزعة المادية لديهم بالظهور، وتزامن مع هذا بداية ضعف الدولة ليس أمام القوى النصرانية فحسب، بل مع الثوار والمنتفضين على الدولة من بني جلدتها، حينئذ بدأت معاول الهدم وأسباب الضعف تنخر في جسم الدولة الأموية، ثم لم تلبث أن قضي عليها نهائياً ـ سنَّة الله في خلقه ـ.

وحينما سقطت تلك الدولة وقام على أنقاضها دول الطوائف، أصبح حب الدنيا والسعي للمصالح الذاتية هاجساً دائماً، وهدفاً مهماً يسعى إليه الكثير منهم ولو أدى ذلك إلى تقديم تنازلات دينية أو سياسية أو خُلُقية أو وطنية[٣]، ولعل تعدد ألقاب الخلافة وتوزعها بين أولئك الزعماء أوضح دليل وأقوى برهان على ذلك.

مما يزهّدني في أرض أندلس ... سماعُ مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[٤]

وقد أدرك هذا الضعف كثير من المعاصرين لذلك الواقع من مفكرين، بل وعامة، ولهذا جاء تصويرهم له دقيقاً، ووصفهم صادقاً، يقول ابن حزم واصفاً

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٩.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦.
(3) Suarez Fernamdez: Manual de Historia umiverral. Tomo, 111, Madrid, 1972, Zo, Edi. pp159.
(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤، المراكشي، المعجب، ص ١٠٥.

تلك الحال: «فضيحة لم يقع في العالم إلىٰ يومنا مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمَّىٰ بإمرة المؤمنين، ويخطب لهم بها في زمن واحد، . . . والله! لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارىٰ إلىٰ بلادهم . . . وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس»، وقال يصف ما وقع من الظلم علىٰ المسلمين: « فما أن يقع الدرهم في أيديهم - يعني مسلمي الأندلس - حتىٰ يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع[1] مضروب علىٰ جماجمهم كجزية اليهود والنصارىٰ»[2].

ولتحقيق تلك الأهداف الدنيئة فإن ملوك الطوائف استعبدوا أهلها لكي يقوموا علىٰ أكتافهم، وليحققوا بواسطة أموالهم ما يطمحون إليه من مال أو جاه وسلطان[3].

أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار[4]

وكان الكثير من أولئك القوم لا يتورعون عن أي وسيلة يرون أنها تزيد من كسبهم المادي أو تعينهم علىٰ تحقيق مصالحهم السياسية، فعلي بن حمود (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ) فرض علىٰ أهل قرطبة ضروباً من المغارم، كما انتزع السلاح منهم[5]، ولتحقيق هذا الغرض حاول ضرب الناس بعضهم ببعض؛ حيث «توصل إلىٰ أعيانهم بقوم من شرارهم؛ ففتحوا لهم أبواباً من البلايا أهلكوا بها الأمة، وتقربوا إليه بالسعاية فيهم، وصار شطر الناس أشراطاً علىٰ سائرهم، قلَّما تلقىٰ

(١) المقصود بالقطيع الضريبة أو الإتاوة المفروضة علىٰ المسلمين.
(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج٣، ص ١٧٣ - ١٧٦.
(٣) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ٣٥.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٥.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٢٣.

أحداً إلا بوكيلين عليه، وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم»[١]، كما أن هذيل بن خلف بن زرين (٤٠٣ ـ ٤٣٦ هـ) كان قد غرق في لذته وشهواته؛ حيث كانت حياته صمّاء عن كل عمل خير، بل بلغ الجهل والفظاظة أن قتل أمّه بيده[٢].

أما المعتضد ابن عباد، فإنه لما ولي الأمر بعد أبيه، بدأ بتصفية رجال الدولة؛ لكي يستبد بالأمور، وينفرد بالجاه والسلطان، «فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، إلى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر»[٣]. كما يذكر المراكشي أنه استولى على مال رجل أعمى، فلما ذهب الأعمى إلى مكة وبها أخذ يدعو على المعتضد، أرسل إليه من سمّه هناك، كما قتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية، فرّ منه إلى طليطلة[٤].

هكذا لم يتورع المعتضد ابن عباد حتى عن أموال العميان ومتوسطي الحال من عامة الناس، بل ضمها إلى ماله ليكاثر بها أقرانه من ملوك الطوائف، وليدفعها للنصارى فدية لهم، غير مبال بالأسلوب الذي نهجه أو الوسيلة التي اتبعها، ومما زاد الأمر سوءاً أنه حينما سلك هذا المسلك لم يكن بحاجة إلى ذلك المال للدفاع عن البلد أو تجهيز جيوش الجهاد، بل كان جلُّ غرضه وغرض أنداده من ملوك الطوائف الذين نهجوا هذا النهج هو بنيان القصور، وجمع الخيول، واقتناء الغلمان؛ ليتفاخروا بها فيما بينهم حيث عدّوا هذه الأمور من الهمم العالية، والرتب الملوكية، كما أنها أصبحت هدف كل واحد منهم[٥].

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ص ١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٣.
(٣) المراكشي، المعجب، ص ١٤١.
(٤) انظر تفصيلات ذلك في: المعجب، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٥.

وكان من أبرز من سلك هذا المسلك من ملوك الطوائف المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ) حاكم الثغر الأعلىٰ الأندلسي، فقد أجبر رعيته علىٰ دفع المال له، فلما اعترض عليه أحد الصالحين قتله[١]، كما ترك لنا المؤرخون وصفاً دقيقاً لتمادي كل من مبارك ومظفر العامريين ـ حاكمي مدينتي بلنسية وشاطبة ـ في هذا السلوك، يقول ابن عذارىٰ: «وبلغت جباتها لأول ولايتهما إلىٰ مائة وعشرين ألف دينار في الشهر، سبعين بلنسية، وخمسين شاطبة، يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتىٰ تساقطت الرعية، . . . وسلك مبارك ومظفر سلوك الملوك الجبارين في إشادة البناء والقصور، والتباهي في عليات الأمور إلىٰ أبعد الغايات، واشتمل هذا الرأي علىٰ جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما، وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء، . . . لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ، كأنهم من الله علىٰ عهد لا يخلفه.

واتسع الخرق في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قُدّرت نفقته علىٰ منزله مائة ألف دينار، . . . وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم، . . . فانغمسا في النعيم إلىٰ قمم رؤوسهما وأخلدا إلىٰ الدعة»[٢].

أما ابن حيان فقد بين أن ما ناله هذان الزعيمان من بحبوحة العيش إنما كان بسوق الرعية المضطهدة، فقد كانا لا يعبآن بما نالهم من أذاهما حيث يقلدان عليهم شرار العمال، حتىٰ غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش، كما فرّ أكثرهم من قراهم[٣]، كما بيّن أيضاً أن هذا الأسلوب كان سلوك الكثير من ملوك الطوائف الذين أقاموا دولتهم علىٰ أنقاض دولة بني أمية هناك[٤].

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠ـ١٦١.
(٣) المصدر السابق، ، ج ٣، ص ١٦٢، (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٢.

وقد عدَّ ابن بسام تلك التصرفات المشينة(١)، من قِبَلهم أنها قد غاظت الجماعة حيث داسوا أحساب الأحرار بأقدامهم متغافلين عن سنَّة الله فيمن جرىٰ مجراهم(٢).

أما منذر بن يحيىٰ التجيبي (٤٠٧ ـ ٤٣٠ هـ) صاحب سرقسطة، فقد كان مع سموِّه للمعالي مؤثراً لشهواته، غير متردد في قضاء لذاته؛ حيث كان متهالكاً علىٰ حب الدنيا(٣).

وكان أبو يحيىٰ محمد بن صمادح (٤٤٤ ـ ٤٨٠ هـ) قد آثر مصالحه الذاتية مستبداً بالأموال لإشباع شهواته ولذاته «دون قضاء حق في جهاد عدو أو سد ثغر»(٤).

---

(١) يلحظ القارئ أن المؤرخين حينما تحدثوا عن تلك التصرفات كانوا يتحدثون بتحسر ومرارة، فابن حيان عدَّ تولي مبارك ومظفر من غرائب الليالي والأيام اللاعبة بالأنام، كما ذكر أن توليهما الحكم هو من الحجج البالغة والدالة علىٰ هوان الدنيا عند الله، ولكنهما مع ذلك كانا بعيدين عن الاعتبار. (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٨، ٣٦٢، نقلاً عن ابن حيان).

أما ابن عذارىٰ فقد عدَّ وفاة مبارك نعمة حيث أمن أهل البلد من مقته وكفاهم الله أمره، كما أنه ذكر سبباً معيناً لتلك الوفاة مرتبطاً بظلمه للناس، وتعديه علىٰ أموالهم حيث قال: «وكان سبب موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغي الخروج للنزهة خارج البلد، . . . وأهل بلنسية يستغيثونه في أن يرفق بهم في مال كان قد افترضه عليهم، فقال لهم يومئذ: اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة. ثم ركب إثر ذلك، فلما أتىٰ القنطرة ـ وكانت من خشب خرجت رجل فرسه، فرمىٰ به أسفلها واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط لفيه ويديه، وسقط الفرس عليه وكسر عظامه، وفتق بطنه ففاضت نفسه لوقته، وأَمِنَ أهل البلد من مقته». (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٣).

أما ابن بسام فقال فيهما إنهما كانا «عبدَيْ مهنة وأميرَيْ فتنة، قلَّ الناس فكثروا، وخلا لهم الجو فباضوا وصفروا، تساوىٰ عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل» (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٣، (نقلاً عن ابن بسام).

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨١.

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٧٤.

كما ذكر ابن بسام أن أبا يحيىٰ «اقتصر علىٰ قصر يبنيه، وعلق يقتنيه من اللذة، يستولي عليه ويبرز فيه»[١]. أما حسام الدولة ابن رزين (٤٣٦ هـ) فقد نافس جاره إسماعيل بن ذي النون في جمع المال وفي خلال البخل وفرط القسوة، . . . وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات، اشترىٰ جارية ابن عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار»[٢]، كما ذكر ابن بسام أن ابن رزين كان له طبع يدعوه فيجيب، كما كان يزدري بالأمة ولا يأبه بالناس[٣] وكان أبو الوليد عبد الملك بن جهور (٤٥٠ - ٤٦١ هـ) قد استباح أموال الناس، كما سلط علىٰ الرعية أهل الفساد، حيث أهمل مسؤولياته الشرعية، بل تعاظم علىٰ من حواليه، حيث سمّىٰ نفسه بـ (ذي السيادتين، المنصور بالله، والظافر بفضل الله)[٤].

ويذكر ابن عذارىٰ أن سبب خلع أهل قرطبة لعبد الملك بن جهور هو ضجرهم من جوره وتعديه هو وحاشيته علىٰ الناس[٥]؛ حيث استعانوا بجيش ابن عباد الذي جاء لنصرته ضد ابن ذي النون؛ إذ إنه لما حاصر قرطبة ثار عليه أهل المدينة بمؤازرة الجيش العبادي، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب كما يقول صاحب كتاب (الأنباء في سياسة الرؤساء)[٦]، ويبدو أن عبد الملك بن جهور قد تجاوز كثيراً في الاستيلاء علىٰ أموال الناس وضمها إلىٰ حوزته؛ حيث يذكر ابن سهل أنه أقيم عليه دعوىٰ بهذا الخصوص بعد سقوط دولة الجهاورة، وأنه حكم برد المظالم إلىٰ أهلها[٧].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٧٣٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٣.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٤، (نقلاً عن ابن بسام).
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٤٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٩.
(٦) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٦٠ (نقلاً عن الكتاب المذكور أعلاه).
(٧) الأحكام الكبرىٰ (مخطوط)، ورقة ١٥٠.

ومن أجل تحقيق المصالح الدنيوية فقد كان بعض ملوك الطوائف لا يتورعون عن التنازل عن المدن التي يحكمونها مقابل مال معين يحصلون عليه، ومما يذكر في هذا الشأن موقف عبد العزيز البكري حاكم شلطيش حينما حاصره ابن عباد بها، فقد اصطلح معه على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال، ثم لجأ إلى قرطبة في كنف ابن جهور مستأمناً على الأموال والأنفس، بينما دخل ابن عباد شلطيش التي خذلها زعيمها مقابل حصوله على تلك الأموال(١).

كان ما سبق عرضه نماذج وأمثلة لحرص ملوك الطوائف على جمع المال، والتفاخر في كثرته، وهنا لا بد من التساؤل عن الأسباب والوسائل التي كان أولئك القوم يستخدمونها لهذا الغرض الدنيء، وتلك الغاية المقيتة؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إن المتتبع للتاريخ السياسي والحربي لذلك العصر يدرك أنه لم يكن يحكمه أي مبدأ من مبادئ القيم والأخلاق بل حتى الأعراف والتقاليد، حيث كان الصراع السياسي والحربي هما الوسيلة الأولى في هذا الميدان مهما كان الثمن لذلك، بل إنهم لم يكونوا يتورعون عن المكر والخديعة ونقض العهد، كما كانوا ينهجون المراوغة مرة والمداهنة أخرى من أجل تحقيق هذا الهدف المهم في نظرهم، فإن لم ينفع هذا ولا ذاك فالسيف(٢)، وهذا بلا شك مما أوقد نار حربٍ ضروسٍ، كان وقودها المسلمين عامة، خلَّفت الكثير من المآسي والكوارث، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى في الموقعة الواحدة؛ ولذا بقيت المدن نتيجة لتلك الحرب خالية من سكانها ما عدا الشيوخ والأطفال والنساء كما يذكر ابن عذارى(٣).

ولو حاولنا استقصاء ما بذل في هذا الميدان لطال بنا المقام؛ حيث إن أحداث ذلك الصراع قد غطت على غيرها؛ ولهذا جاءت كتب التاريخ التي عنيت بعصر

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٤٢.
(٢) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي، ص ٦١.
(٣) البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٢.

ملوك الطوائف زاخرة بأحداث وحوادث تلك المآسي، ولكن حسبنا في هذا المقام إشارة عابرة للدلالة والاستشهاد لا للرصد والتدوين.

ولعل مما يشفع لنا في هذا المقام أن مؤرخي الأندلس المعاصرين لتلك الأحداث قد أعرضوا عن ذكرها لا لطول أحداثها فحسب، بل لمرارتها وشدة وقعها على النفوس، يقول ابن بسام ـ وهو ممن عايش تلك الأحداث ـ حينما تحدث عن ابن صمادح: «وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف في الجزيرة فتون مبيرة... وقد اندرجت له ولهم في تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام، وتتبرأ منها القراطيس والأقلام»(١).

ومما يمكن ذكره هنا، تلك الحروب التي وقعت بين عدد من ملوك الطوائف تناحراً على المصالح الذاتية، فمنها ما وقع بين بني زيري أمراء غرناطة وبين زهير الفتى الصقلبي حاكم المرية، وانتهت بمقتل زهير عند أسوار غرناطة، حينما تصدى له باديس بن حبوس زعيم البربر في غرناطة سنة ٤٢٩ هـ(٢)، ثم استولى على المرية معن بن صمادح غدراً من يد صهره عبد العزيز بن أبي عامر(٣).

ولم تكن هذه هي الجبهة الوحيدة التي قاتل بها البربر، بل إن بني زيري خاضوا حروباً متواصلة مع بني عباد حكام إشبيلية؛ حيث تمكن العباديون من اختراق الصف البربري، حينما أوقعوا بين زناتة في قرمونة، وصنهاجة في جنوب الأندلس، لكن العباديين خسروا الجولة حينما حاولوا الاستيلاء على قرمونة وإشبونة وإستجة؛ حيث قتل قائدهم إسماعيل بن عباد سنة ٤٣٠ هـ

---

(١) الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٧٣٣.

(٢) يذكر ابن عذارى أنه كان من بين الأسرى الذين أسرهم باديس عدد من حملة الأقلام مثل الوزير أحمد بن عباس، وابن حزم، وأبي الوليد الباجي، وغيرهم حيث عفا عنهم جميعاً دون الوزير ابن عباس الذي أمر بقتله؛ لأنه كان سبباً لتلك المعركة. (البيان المغرب، ج٣، ص ١٧١).

(٣) انظر تفصيلات ذلك في: عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ٢٢ ـ ٢٣، ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٦٢، ٦٦٥ ـ ٧٣١، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٦، ١٧١.

حينما خذله بعض جنده[١].

وكانت دولة بني جهور في قرطبة هدفاً مهماً لكثير من ملوك الطوائف، وذلك لأهمية موقعها، ولضعف قوتها؛ حيث كان أول الطامعين بها بنو عباد الذين واصلوا حملاتهم العسكرية ضدها بغية الاستيلاء عليها، وإسقاط دولة بني جهور، إن لم يبايعوا هشام المؤيد[٢]، وقد أثرت تلك الحملات على أهل

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٧٢، (نقلاً عن ابن حيان)، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٠٢.

(٢) هشام بن الحكم المستنصر، ولي الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦ هـ، وسنّه عشرة أعوام وبضعة أشهر، حيث تولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي عامر الوصاية عليه، وفي سنة ٣٩٩ هـ خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الملقب بالمهدي؛ فخلعه وقتل وزيره عبد الرحمن بن أبي عامر، ومن هنا نشأت الفتنة ببلاد الأندلس.

وقد بقي هشام بن الحكم (المؤيد) في قرطبة حتى دخلها سليمان بن الحكم المستعين بالله سنة ٤٠٣ هـ، وهنا اختلف المؤرخون حول مصيره، فابن بسام وابن عذارى قالا: قيل إنه قتل، وقيل: إنه فر من أمام المستعين، أما ابن الخطيب فيشك في مقتل هشام حيث يذكر أن موت هشام مشكوك فيه، بينما يجزم المراكشي بمقتل هشام على يد البربر الذين دخلوا مع سليمان المستعين.

هكذا تباينت آراء المؤرخين حول مصير هشام المؤيد بعد دخول سليمان المستعين لقرطبة سنة ٤٠٣ هـ.

ويذكر ابن عذارى أنه لما قامت دولة بني عباد في إشبيلية، وكانت بحاجة إلى سند شرعي يدعم كيانها أمام بعض متربصي ملوك الطوائف ولا سيما بني حمود، أعلن أبو القاسم ابن عباد في سنة ٤٢٦ هـ، أن هشام المؤيد مختفٍ خشية الفتنة، وأن بني عباد قد بايعوه خليفة للمسلمين في إشبيلية، كما يذكر ابن عذارى أنه بعد مبايعته أنزل ابن عباد معه في القصر، وسلم له مقاليد السلطة، حيث أصبح حاجباً له كالمنصور بن أبي عامر، ثم خطب لهشام في بعض أقاليم بلاد الأندلس؛ مما قطع الأطماع ضد بني عباد، لكن ابن الخطيب ذكر أن بعض ملوك الطوائف أرسلوا رجالاً للتأكد من صحة الأمر فأُدخلوا على الرجل في بيت مظلم مدعياً أنه يشكو من مرض في عينه، فكلمهم وكلموه، ثم خرجوا من عنده منهم المقر ومنهم المنكر، وقد سخر ابن حزم من هذا الادعاء، وعدّه من الادعاءات التي لم تحدث مثلها في التاريخ. (ابن حزم، نقط العروس، ص ٨٣ ـ ٨٤، ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٧، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٤ ـ ٣١٥، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٥٤، المراكشي، المعجب، ص ٤٥ ـ ٤٧).

قرطبة حيث غلت أسعارهم كما أصبحوا شبه محصورين داخل مدينتهم حين أدركت باديس بن حبوس حاكم غرناطة الحمية، فخرج لنصرة ابن جهور ضد خصومه بني عباد الذين فروا بعد هزيمتهم خارج قرطبة سنة ٤٣١ هـ(١).

ولم يكن بنو عباد وحدهم الطامعين في إسقاط دولة الجهاورة ودخول مدينة قرطبة للاستيلاء على خيراتها(٢)، بل إن الحموديين وبني ذي النون، وغيرهم(٣) كانت لديهم تلك الأطماع حيث حاولوا أكثر من مرة لكنهم أخفقوا، وفي النهاية آلت قرطبة إلى العباديين، بعد تمكن جيشهم من طرد بني ذي النون من عند أسوارها، وذلك في ٢١ شعبان، سنة ٤٦٢ هـ(٤).

وكانت العلاقة بين بني الأفطس حكام سرقسطة وبين جيرانهم بني عباد سيئة، بسبب التنافس على المصالح الذاتية، فقد وقعت بينهما مصادمات حربية كثيرة بسبب نزاعهما حول مدينة لبلة التي تقع على الحدود بينهما، حيث قتل في إحدى المعارك سنة ٤٤١ هـ، أمير قرمونة، كما قتل عبيد الله الخراز صاحب يابرة، بينما نجا ابن الأفطس من المعركة بصعوبة، وقتل من جيشه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل(٥).

أما بنو ذي النون وبنو هود حكام سرقسطة، فقد استمر الصراع بينهما من أجل تلك الغايات الدنيئة، ومما يذكر هنا نزاعهما حول مدينة وادي الحجارة(٦)،

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠١.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص ١٤٩، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣، ٢٦٠، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ص ٤١.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ١٨.
(٤) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٨٦ - ٣٨٧.
(٥) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٨٧ - ٣٨٨، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٢، دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٩.
(٦) مدينة وادي الحجارة، تعرف بـ(مدينة الفرج) بالأندلس تقع شرق قرطبة، وهي مدينة كثيرة الأرزاق، جامعة لأشتات المنافع، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً. (الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٦).

ذلك أنه حينما استولىٰ عليها سليمان بن هود ، قامت قيامة يحيىٰ بن ذي النون طمعاً بتلك المدينة وما فيها من خيرات ، وقد استعان كل واحد منهما بالنصارىٰ ضد صاحبه حيث دامت الحرب بينهما من عام ٤٣٥ هـ إلىٰ آخر عام ٤٣٨ هـ ، ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود[١] بعد أن خلفت آثاراً عسكرية ، واجتماعية ، ونفسية ، واقتصادية جسيمة ، كما سنرىٰ ـ إن شاء الله ـ في نهاية هذا الكتاب .

هكذا كان واقع ملوك الطوائف ، فالراضي منهم كان يضمر التوسع ، والساخط ينوي الثأر والانتقام ، وهذا مما أشعل الحرب بينهم وأدام نشوب المعارك ـ وربما لسنوات عديدة ـ دون هدف سام ، أو غاية نبيلة ، وقد كان الواحد منهم حينما يحشد الحشود لمحاربة أحد جيرانه من ملوك الطوائف يبالغ في ذلك حتىٰ إن كل واحد من ملوك الأندلس حينما يسمع بتلك الحشود يتوقع أنها ستوجه نحوه ، ويظن أنه لا يريد سواه[٢] .

كما أن تلك الحروب لم تكن تحكمها مبادئ دين أو خلق ، بل كانت تقوم علىٰ المكر والخديعة ، ثم تنتهي بالسلب والنهب ، وربما القتل والتمثيل ، وهذا بلا شك مما أمات في النفوس الأنفة الإسلامية ، والشيم الحميدة ؛ حيث صار أفراد تلك الجيوش كالوحوش المتنافسة علىٰ فريستها ، حينما تجردوا من كل خلق سليم ، أو قيم حميدة ؛ حيث لم تنج أسرة واحدة من الأسر الحاكمة في ذلك العصر من الصراع الداخلي والخارجي[٣] ، بل أمضوا معظم سني حكمهم في ذلك الصراع ، وهكذا أصبح الاستقرار السياسي شبه معدوم عندهم ، بسبب الجشع والطمع ، والسعي وراء الذات ومصالحها ، وهذا ما سنفصل القول فيه ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ في الفقرة التالية .

---

(١) ابن عذارىٰ ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .
(٣) رجب عبد الحليم ، العلاقات ، ص ٢٨٨ .

كان هذا عرضاً سريعاً لظاهرة التكاثر المادي التي اتسم بها ملوك الطوائف؛ حيث تبين لنا أن ملوك الطوائف أمضوا أعمارهم في حروب متواصلة من أجل تحقيق المطامع والمصالح، وهذا بلا شك مما جعلهم في قلق دائم فلم يرتاحوا حتى في الساعات الأخيرة من حياتهم(١)، كما نتج عن ذلك تولد شعور عام عند الناس بأن هؤلاء الحكام ظلمة وجل همّهم جمع المال، ولعل ما تركه لنا كل من ابن حزم وابن حيان من نصوص قالوها في رصد تلك الظاهرة خير دليل على ذلك، فابن حزم قال: «اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم، ودار قرارهم، بجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم، وعن حياطة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة»(٢). بل إن ابن حزم ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حيث عدَّهم محاربين لله ورسوله، ومن الساعين في الأرض بالفساد حيث شنوا الغارات على أموال المسلمين(٣).

«فما أن يقع الدرهم في أيديهم - يعني مسلمي الأندلس - حتى يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع(٤) مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى»(٥).

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أدى الظلم في جمع الأموال من الرعية، وتحصيلها بأي وسيلة ممكنة إلى قول أحد المعاصرين: «إنه ليس في الأندلس في

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج٢، ص ٧٣٤.
(٢) الرد على ابن النغريلة، رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، ج٣، ص ٤١.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٥ - ١٧٦.
(٤) المقصود بالقطيع الضريبة أو الإتاوة المفروضة على المسلمين.
(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٥.

ذلك الوقت درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب»(١) ، كما قال أحد الكتاب المحدثين إنه في الوقت الذي كان النصارىٰ يعدون الرجال لحرب المسلمين كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال، ويضيعون الرجال، كما قال أحد المعاصرين: إن تلك الحال لا يصلحها إلا نبي(٢).

ويبدو أن هذا المرض بل الداء العضَال قد تأصل في نفوس جميع ملوك الطوائف حتىٰ من عُدوا من القاسطين منهم كأبي الحزم ابن جهور الذي وصفه الذهبي بأنه «من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً»(٣)، كما وصفه ابن حيان بأنه أمين الجماعة المأمون عليها(٤)، لكنه مع هذا كان حريصاً علىٰ جمع المال «حتىٰ تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينه علىٰ أغنىٰ منه، أحاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد عائبه عليه مطعناً، ولكمل لو أن بشراً يكمل»(٥)، كما يقول ابن حيان.

ولعل من الإنصاف أن نذكر هنا أن ثراء أبي الحزم ابن جهور لم يكن علىٰ حساب بيت مال الدولة، بل كان بسبب نظره لمعيشته حسبما يقوله ابن عذارىٰ(٦)، كما ذكر ابن بسام أنه كان لا يلتبس بشيء من مال المسلمين ولا يدخل داره(٧). ذكر ابن عذارىٰ ـ أيضاً ـ نقلاً عن ابن حيان أنه «اخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، وأجادوا السياسة فيه، فانسدل الستر علىٰ أهل قرطبة مدّته، وحصّل كلّ ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه، وصيَّر ذلك في أيدي ثقاة من الخدمة مشارفاً لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه في

(١) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٣، ٣٠١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤.
(٣) العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٣٨٣.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠ (نقلاً عن ابن حيان).
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦، (نقلاً عن ابن حيان).
(٦) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.
(٧) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣.

أيديهم مثقفاً مشهوداً عليه لا يلتبس لهم بشيء منه، ومتىٰ سُئل قال: ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة، وأنا منهم»(١).

لكن تلك الأموال التي تجمعت في بيت مال قرطبة لم تفدها كثيراً؛ ذلك أنها لم توجه إلىٰ إعداد القوة وتحصين البلاد ضد الأخطار المحيطة بها، بل ربما أضحت مصدر خطر حينما تسامع بها أولئك الطامعون فتداعوا عليها كما تتداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها.

وكان هذا الحرص علىٰ التكاثر المادي عند ملوك الطوائف سبباً في ظلم الرعية والاستيلاء علىٰ أموالهم بغير حق(٢)، كما كان عاملاً رئيساً في القعود عن الجهاد، بل حتىٰ عن إعداد الجيش ومدافعة العدو القادم، ولعل مما يدل علىٰ ذلك موقف أهل بربشتر التي داهمها العدو سنة ٤٥٦ هـ، فقد وجد فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه كثرة، كما يذكر البكري(٣)، ولا أستبعد أن تكون ظاهرة التكاثر المادي التي عُني بها أولئك القوم، حتىٰ أصبحت آفة من آفات عصرهم، قد عمل النصارىٰ علىٰ إشعال جذوتها والسعي لتأجيج نارها بين المسلمين، حتىٰ يهدموا بيوتهم بأيديهم، ويقضوا علىٰ قوتهم بذلك المعول البالغ الأثر في القضاء علىٰ الأمم والشعوب، ولعل مما يؤيد هذا الأمر ما ذكره الحجاري من أن النصارىٰ قد تنبهوا لهذه الثغرة منذ وقت مبكر؛ حيث قال أحد ملوكهم مخاطباً قومه حينما رأىٰ طلائع جيوش المسلمين الفاتحة تجتاح بلاد الأندلس: «لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تُغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتىٰ تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٣ (نقلاً عن البكري).

الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»[١].

ولعل من المناسب أن نشير في نهاية هذا المبحث إلى أنه بالرغم من حرص ملوك الطوائف على المال وجمعه فإنه كان يرخص في عيونهم حينما يرون أن بذله يدعم سلطانهم، أو يظهر هيبتهم؛ ولهذا بذلوا الكثير منه لكسب الأدباء والشعراء، ورغبة في الحصول على مدحهم وثنائهم، ومن أمثلة ذلك أن المعتصم ابن صمادح (٤٤٣ ـ ٨٨٤ هـ) منح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن أبي عبد الله البرجي، حينما قدم إليه يشتكي عامل تلك المدينة، وأنشده قصيدته التي مطلعها:

قامت تجر ذيول العصب والحبر — ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر — إلا الذي في عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم: «أنا سوغتك جميعها لهذا البيت الواحد. ثم وقع له بها، وعزل عنها نظر كل والٍ»[٢].

أما المعتمد ابن عباد (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ) فقد أعطى الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفي دينار على بيتين اثنين من الشعر هما:

غاض الوفاء مما تلقاه في رجل — ولا يمر بمخلوق على بال
قد صار عندهم عنقاء مُغربة — أو مثل ما حدّثوا عن ألف مثقال[٣]

كما منح الشاعر أبا العرب الصقلي على بعض شعره مبلغاً كثيراً من الدنانير الفضية، وتحفة غالية في صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر، بيع بخمسمائة مثقال، «فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب»[٤].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٧٥، (نقلاً عن الحجاري).
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٩٢، بالنثيا، الفكر الأندلسي، ص ١١١.
(٣) بالنثيا، الفكر الأندلسي، ص ٩٧.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٦١.

ثالثاً: النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة:

لا يختلف اثنان في كون المنازعات والخلافات التي تقع بين الأفراد أو الجماعات والدول من أكبر معاول الهدم، وأسباب الضعف التي يقضي عليها، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلىٰ قسمتها ثم اضمحلالها[١].

ومما اتسم به عصر ملوك الطوائف، ذلك النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة نفسها، ولا يخلو تاريخ أي دولة من تلك الدول من وجود أحداث جسام في هذه القضية، ومن أوضح النماذج في هذا الموضوع ذلك النزاع الذي وقع بين أفراد الأسرة الحاكمة من بني هود؛ وذلك حينما قسم المستعين بالله سليمان بن هود بلاده علىٰ أولاده الخمسة قبل وفاته، فلما توفي دبّ النزاع بينهم، حيث يذكر ابن عذارىٰ أن أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله (٤٤١ ـ ٤٧٤ هـ) «لم يزل يحتال علىٰ إخوته حتىٰ أخرج بعضهم من مواضعهم، واحتال عليهم وسجنهم، وكحل بالنار بعضهم»[٢]، ولم يسلم من هذا الأذىٰ سوىٰ أخيه يوسف حسام الدولة، فقد استطاع أن يدافع عن نفسه[٣]، وقد أدىٰ هذا النزاع إلىٰ الاستعانة بالنصارىٰ بعضهم ضد بعض، كما ذهب ضحيته آلاف القتلىٰ؛ حيث استمر النزاع بين الطرفين مدة طويلة؛ مما أضعف منطقة الثغر الأعلىٰ التي كانت حاجزاً بين المسلمين وما يليها من ممالك النصارىٰ[٤] الذين حاولوا الاستفادة من ذلك

---

(١) العبر، ج ١، ص ٥١٧.
(٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

الصراع وخصوصاً حينما حمي وطيسه بين المستعين وعمّه المنذر، فقد حاصر الملك القشتالي ألفونسو السادس مدينة سرقسطة، وكادت تسقط في يده لولا مفاجأته بنزول المرابطين بلاد الأندلس سنة ٤٧٩ هـ(١).

وكانت دولة بني حمود من الدول التي استشرى الصراع بين زعمائها؛ حيث قتل بسبب ذلك أول حكامها علي بن حمود سنة ٤٠٨ هـ غيلة داخل الحمام(٢)، ثم تنازع ولداه يحيى وإدريس مع عمهما القاسم بن حمود على السلطة حيث تعاقبوا على حكم قرطبة عدة مرات، وقد كان يحيى مؤيداً من البربر بينما كان عمّه القاسم مؤيداً من قبل السودان، وقد تمخض عن هذا الصراع استيلاء بني عباد على إشبيلية واستقلالها عن بني حمود سنة ٤١٤ هـ، ثم بعد ذلك فقدوا قرطبة، وهكذا لم يبق تحت حكمهم سوى غرناطة، والجزيرة الخضراء، أما غرناطة فسقطت بأيدي بني زيري سنة ٤٤٩ هـ، ثم استولى العباديون على الجزيرة الخضراء سنة ٤٥٠ هـ، وبذلك انتهت دولة بني حمود نتيجة لانقسامهم على أنفسهم، وما تمخض عن ذلك من حروب فيما بينهم(٣).

أما دولة بني زيري في غرناطة فقد بدأ الانقسام بين أمرائها عقب وفاة حبوس ابن ماكسن؛ حيث كان حبوس قد قسم أعمال حكم غرناطة على بني عمومته وأقاربه من بربر صنهاجة، وبعد ذلك التقسيم أصبح كل واحد منهم سلطاناً على ما يليه، وله أجناده وحكومته، وكان حبوس يستشيرهم في أموره ولا ينفرد بأمر دونهم، فلما توفي سنة ٤٢٨ هـ تولّى ابنه باديس الحكم، لكن أحد بني عمومته

(١) أبو الفدا، المختصر، ج ٢، ص ١٥٥، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٢.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢٢.
(٣) رجب عبد الحليم، دولة بني حمود، ص ٨٥.

ويدعىٰ يدير بن حباسة حاول خلع باديس والاستيلاء علىٰ مقاليد الحكم، فعرف الوزير اليهودي ابن النغريلة(١) بتلك الخطة، فنصح باديس بأخذ المتآمرين بالحيلة حتىٰ لا تؤدي الحروب إلىٰ إضعاف الدولة، فقبل النصيحة، وضرب المتآمرين بعضهم ببعض فتخلص منهم(٢).

وعلىٰ الرغم من قضاء باديس علىٰ المناوئين من بعض أبناء عمومته فإنه فيما يبدو لم يكن مطمئناً علىٰ وضعه، بل كان يخشىٰ المنافسة؛ ولهذا احتاط لنفسه ولابنه بلقين حيث بنىٰ قصبة مالقة الكبيرة بعد أن استولىٰ عليها من بني حمود سنة ٤٤٩ هـ، وكانت تلك القصبة في غاية الحصانة، بل إن بنيانها لم يقدر عليه أحد في زمانه، كما شحنها بالمؤن والأموال حيث جعلها ذخراً له ولابنه إذا ما ساءت الأحوال في غرناطة سواء بتآمر بني عمومته أو باعتداء ملوك الطوائف، كما لجأ إلىٰ إجراء آخر حيث أخذ أقاربه بالشدة والعنف، فإذا أحس من أحدهم بما يريبه حكم عليه بالنفي والمصادرة كيلا يبقي لابنه بلقين بعده من ينافسه(٣).

---

(١) كان باديس ومن قبله والده حبوس قد عهد في تدبير شؤون وزارتهما إلىٰ أسرة يهودية هي أسرة النغريلة، وكان أولهما إسماعيل بن نغريلة وبعد وفاته خلفه ابنه يوسف، وفي عهد يوسف عظم شأن اليهود في غرناطة، كما تطاول علىٰ الإسلام والمسلمين، وقد رد عليه ابن حزم، كما حاول تدبير مؤامرة يسقط فيها حكم باديس ويسلم الإمارة لأبي صمادح أمير المرية، وقد تضايق الناس من تصرفاته وخصوصاً حينما أثارتهم أشعار أبي إسحاق الأليري حيث قامت ضد اليهود ثورة في غرناطة قتل فيها يوسف بن إسماعيل، كما استؤصلت شأفة اليهود في غرناطة، وذلك سنة (٤٥٩ هـ / ١٠٦٦م)، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٣٣ ـ ١٣٥، سعد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص ٨٠.

(٢) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢٥ ـ ٣٠، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩١، ٢٦٤.

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣٦ ـ ٤٤.

هكذا صرف باديس بن حبوس جل وقته وماله، وجهده، لتحصين دولته ضد أخطار بني عمومته، متشاغلاً بذلك عن الخطر النصراني، حينما عطّل الجهاد في سبيل الله، لكن تلك الإجراءات التي اتخذها لم تحم دولتهم من الصراع الأسري بعد وفاة ابنه بلقين، فقد ترك ولدَيْن هما: تميم، وعبد الله، حكم الأول مالقة، بينما بقي الثاني على حكم غرناطة، وقد حاول تميم الاستيلاء على مدينة المنكب التي تخضع لحكم أخيه، ومن هنا نشأ الصراع بينهما حيث قام عبد الله بحربه وحصاره، فلما أدَّبه كف عن حصاره خشية أن يستفيد الخصوم والمتربصون من ذلك النزاع، كما أعطاه قلعة جطرون بدل المنكب، لكن تميم بقي ساخطاً على أخيه حيث استغل قدوم المرابطين إلى الأندلس، فشكا أخاه إليهم، كما تسبب في إضعاف قوة بني زيري مما سهل القضاء عليهم(١).

ولم تكن دولة بني ذي النون في طليطلة أقل من سابقاتها في ميدان الصراع الأسري للطبقة الحاكمة، فحينما تولى يحيى المأمون بن ذي النون (٤٣٥ - ٤٦٧ هـ) خرج عليه أخوه عبد الرحمن كما اختلف مع عمه أرقم بن عبد الرحمن، أما أخوه عبد الرحمن فقد نازعه سلطانه كما بالغ في إيذائه؛ حيث دلَّ خصمه سليمان بن هود على عوراته، فلما علم بذلك يحيى المأمون أرسل بالأموال والذخائر إلى شانجة ملك قشتالة، وطلب منه النصرة ضد أخيه وبني هود(٢).

وفي تلك الأثناء كان أرقم بن عبد الرحمن قد غضب على ابن أخيه يحيى

(١) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٩٠ - ٩٤.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨١، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ١٤، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ١٣٣-١٣٤.

المأمون؛ لأنه كان يبغضه ويحسده على ما أعطاه الله من العلم والمعرفة، والأدب[١]، ففر منه إلى الثغر الأعلى، ومنها إلى جليقية؛ حيث قال:

إذا لم يكن لي جانب في دياركم　　فما العذرُ لي ألاّ يكون تجنّبُ؟

وفي جليقية دلَّ ملكَها على عورات المسلمين، كما وضعا خطة لمعاقبة يحيى ابن ذي النون، وخصوصاً حينما اعتدى حليفه الملك القشتالي على أراضي بني هود حلفاء جليقية، ويذكر ابن عذارى أنه حينما خرجت الجيوش من جليقية هرب الناس من أمامها إلى طليطلة حيث غصت بهم واضطربت أحوال أهلها، وكان أميرها يحيى بن ذي النون مقيماً في مدينة سالم خشية أن يدخلها ابن هود، فلما رأى ذلك أهلها اصطلحوا مع الملك النصراني على أن يفك الحصار عنهم مقابل أن يدفعوا له الأموال[٢].

أما أرقم بن ذي النون فذكر ابن سعيد أن يحيى المأمون ظل قلقاً بمكانه هناك؛ فدسَّ إلى فرديناند من أوعز إليه ونصحه بأنه جاسوس من قِبَل ابن أخيه ليتكشف بلادهم فقتلوه، فلما علم المأمون بذلك قال: «الحمد لله، هذه نعمة من جهتين: فَقْد عدو، ووجوب ثأر نطلب به»[٣].

وبالرغم من رجوع الجيش النصراني، ومقتل أرقم بن ذي النون الذي حرضه

---

(١) يرى المقري أنه كان هناك سبب آخر لكراهية بني ذي النون لأرقم بن عبد الرحمن، وهو كونه ابن أمة، فنفوه من نسبهم؛ ولهذا قال:

زعمتم بأني لست فرعاً لأصلكم　　فهلا علمتم أنني عنه أرغبُ
وحسبي إذا ما البيض لم ترع نسبة　　بأني إلى سيفي ورمحي أُنسبُ

(نفح الطيب، ج ٤، ص ١٣٤).

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٨١-١٨٢.

(٣) المغرب، ج ٢، ص ١٤.

على دخول بلاد ابن أخيه؛ فإن آثار تلك الصراعات الأسرية ظلت باقية بعد ذلك؛ فقد دامت الفتنة بين ابن ذي النون وابن هود التي أشعل جذوتها الصراع الأسري من سنة ٤٣٥ هـ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ[(١)].

كان هذا عرضاً سريعاً لنماذج من الصراعات التي وقعت بين أسر ملوك الطوائف تنازعاً على السلطة، وتناحراً من أجلها، وقد بدا لنا من خلال هذا العرض أن ذلك الصراع قد بُذلت فيه جهود كبيرة استنزفت قوة المسلمين؛ وكان الأَوْلى أن تُصرف في إعداد الجيوش ومقاومة الأخطار الخارجية، لكن ملوك الطوائف تغافلت عن هذا الأمر؛ حيث وجَّهوا حراب الحرب بعضهم ضد بعض حتى لو كانوا من ذويهم وأهل بيتهم، وهذا مما خلّف آثاراً جسيمة على كيان مسلمي الأندلس، ولا سيما في جانب القوتين: المعنوية والحربية؛ حيث وُجّهت السهام إلى الأقربين بدل الأعداء المشركين، كما أن الهدف أضحى هو السلطة والسلطان بعد أن كان نصرة المسلمين وجهاد الأعداء الكافرين، كما تمخض عن ذلك أن «ازداد فساد الحكام والأمراء والملوك، وقاسى الشعب الأندلسي في ظل حكمهم كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعاً خاصة يستغلونها كيفما يشاؤون، ويجعلون من شعوبهم عبيداً ليس عليهم إلا الكد والكدح، ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة، حتى ساءت حالة الرعية، وبلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل والحشائش، ولبسوا الجلود والحصر، وفرّ أكثرهم من قراهم»[(٢)].

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٨٢.

(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٢.